الحركة الفكرية بالدولة الرستمية وإسهام المرأة الإباضية فيها

أة. تالية سعدو[§§]

مقدمة: قامت الدولة الرستمية بتاهرت عام 160هـ/777م على يد عبد الرّحمن بن رستم[1]، وهي أول دولة إسلامية مستقلة في المغرب الأوسط، وقد أقامت هذه الدولة قاعدة ثقافية متينة في تاهرت وجبل نفوسة، نوه بها أصحاب الطبقات والسير والتي جعلت من تاهرت حاضرة ثقافية تضاهي القيروان وقرطبة وفاس لأن العلم شكل أول اهتمامات الأئمة الرستميين فكرسوا حياته لنشره بين جميع طبقات المجتمع، إذ ارتبطت الحياة الفكرية ارتباطا كبيرا بالمذهب الاباضي، وقد ساهمت المرأة في الحركة الفكرية، وخطا تعليمها خطوات جيدة إذ اشتهرت الإباضيات بالعلم والحكمة، والمطلع على كتب سير الاباضية يجد أسماء عديدة لنساء نبغن في مختلف العلوم حيث كان منهن العالمة والفقيهة.

فما هي عوامل ازدهار الحركة الفكرية بتهارت؟ وما هي اسهامات المرأة الاباضية فيها؟

عوامل ازدهار الحركة الفكرية بتهارت:

1- تكريس الأئمة و العلماء حياهم للعلوم و نشرها: كان لرعاية الأئمة الرّستميين وحبهم للعلم أثره في نشر الثقافة وانتعاش الفكر في إمارتهم، حيث كان من شروط تولي الامامة عند الاباضية أن يكون الإمام المبايع عالما محيطا[2]؛ فمؤسس الدولة الرّستمية عبد الرحمن بن رستم كان من حملة العلم بالبصرة[3]؛ فقد بويع على إقامة كتاب الله وسنة رسوله واتباع الخلفاء الرّاشدين، فقبلها على ذلك وأقام بأمر الله وزهد الدنيا بعد أن تمكن منها فلم ينقم أحد عليه في خصومة ولا حكومة ولا أخد مال ولا إقامة حد ولا ميل إلى الدنيا[4].

[§§]- أستاذة مساعدة أ في تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ- جامعة ابن خلدون- تيارت.

وعندما أسس عبد الرّحمن بن رستم مدينة تاهرت كان المسجد أول بناء وضع في المدينة على عادة المسلمين، فكان النوة الأولى التي تلقى فيها العلماء ثقافتهم بفضل حرية المناظرة والجدل التي كانت سائدة في ذلك المسجد، وهذا ما أشار إليه ابن الصغير المالكي بقوله: "كانت مساجدهم عامرة، وجامعهم يجتمعون فيه، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا إلا أنّ الفقهاء تناجت المسائل فيما بينهم وتناظرت ومن أتى حلق الإباضية من غيرهم قرّبوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية الى حلق غيرهم كان سبيله كذلك[5] مما يعني أن الرّستميين فتحوا المجال واسعا أمام حرية الفكر فلم يضايقوا أحدا، و لعلّ ذلك كان سببا في قدوم مختلف الأجناس والمذاهب الى تاهرت، فالحوار المذهبي كان عاملا رئيسيا في التبادل الثقافي بين الرّستميين وباقي حواضر المغرب الاسلامي.

لقد شارك الأئمة العلماء مشاركة فعالة في الحركة العلمية، فكانوا يقومون بالتدريس في جامع تاهرت وجامع جبل نفوسة[6]، حيث أشارت بعض المصادر[7] إلى أنّ الإمام عبد الوهاب بن رستم (171-208هـ/790- 823م) كان من أعلم علماء الاباضية في وقته، أقام في منطقة جبل نفوسة مدّة سبع سنين يلقي الدروس الدينية وبخاصة ما يتعلق منها بأحكام الصّلاة.

ولم يخرج الإمام أفلح (208-258هـ/823-871م) عن السنة التي سنّها الامام عبد الوهاب بن رستم وأبوه؛ فقد نبغ في العلم، وهو بعد شاب قال عنه الدرجيني: "كان في العلوم متفقها وعلى أنواعه متطلعا، وأنه كان يجلس لأربع حلق، وذلك قبل بلوغه الحلم[8]، كما كان عالما في الحساب والفلك وأديبا وشاعرا، وله قصيدة في الحث على العلم وبيان فضله ومزايا العلماء مطلعها:

العلم أبقى لأهل العلم أثـــارًا يريك أشخاصهم روحًا و أبكارًا

ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا حي و أن مات ذو علم و ذو ورع

أما الإمام أبو بكر بن أفلح (258-261هـ/871-874م) فقد ذكره بن الصغير بقوله: "كان يحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين... وكان... يحب اللذات ويميل إلى الشهوات[10] وهذا ما دفع بعض المؤرخين[11] إلى الاعتقاد أن بلاطه كان منزل الأدباء والشعراء يشجعهم باهتمامه بإنتاجهم ويرعاهم بصلاتهم ويستأنس كذلك بالتاريخ ورواة أخباره، أي أن ثقافته ليست دينية بحتة.

وبالنسبة للإمام أبو اليقظان محمد ابن أفلح (261-281هـ/874-894م)، فقد جمع ما بين العلم والعمل، فبلغ في فنون العلم الكثير حتى أن نفوسه "كانت لا تعدل أيامه وسيرته إلا أيام جده عبد الرحمن وسيرته، وذلك أنهم اتخذوا مجلسه حينئذ كالمسجد، فطائفة يصلون وطائفة يقرؤون الكتاب، وطائفة يتذاكرون في فنون العلم..."[12]

وكان الإمام كأسلافه شغوفا بإلقاء الدروس لما له من رصيد علمي واسع، ومن اللذين تتلمذوا على يده ابن الصغير المالكي، صاحب كتاب " أخبار الأئمة الرستميين" الذي يذكر ذلك عن نفسه بقوله: "قد لحقت أنا بعض أيامه وإمارته وحضرت مجلسه، وقد جلس للناس خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي، ورأيته ثانيا في مصلى الجنائز؛ فرميت له وسادة من أدم فجلس عليها[13] وكان لأبي اليقظان كتاب في الرد على أهل الخلاف[14].

وعلى العموم فإن ثقافة الأئمة الرستميين قد نوه بها أصحاب الطبقات والسير الاباضية وغير الاباضية كقول الدرجيني: "وكان بيت الرستميين بيت العلوم وجامعا لفنونها من علم التفسير والحديث والفرائض والأصول والفروع وعلم اللسان وعلم النجوم[15]، ويذكر أبو زكرياء أن أحد الرستميين قال: "معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعلم منزلة بيت فيها القمر[16].

لم يقتصر دور الأئمة الرستميين على نشر العلم والقيام بالتدريس، بل اشتركوا أيضا في حركة التأليف، فقدموا للأئمة الكثير من المؤلفات في مختلف فنون العلم، فالشماخي يذكر أن للإمام عبد الرحمن بن رستم تفسيرًا لكتاب الله[17]، وإن كان ابن الصغير المالكي ينفي أن تكون له مؤلفات معروفة من تأليفه[18]، وصنف الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن كتابا سماه "مسائل نفوسه" لأن نفوسة كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها؛ فأجابها عن كل مسألة مما سألت عنه، ويذكر ابن الصغير أن هذا الكتاب كان في أيدي الاباضية مشهورا عندهم معلوما يتداولونه قرنا عن قرن، إلى أن لحق الفصل فأخذه عن بعض الرستميين فدرسه ووقف عليه[19]، والكتاب ينم عن عالم جليل متمكن في أصول الإسلام، واسع العلم بالفقه واللغة والتاريخ[20]،كما كان لأفلح بن عبد الوهاب عدة مؤلفات ورسائل[21].

إلى جانب دور الأئمة الرستميين في ازدهار الحركة الفكرية لما قاموا به من تدريس وتأليف، تشير كتب الطبقات والتراجم إلى عدد غير قليل من علماء الاباضية الذين ساهموا في بناء القاعدة الثقافية داخل الإمارة الرستمية وبخاصة في تاهرت وجبل نفوسه نذكر منهم:

– عمر بن فتح: تولى القضاء زمن الإمام أبو حاتم يوسف بن محمد بن افلح، وكان عالما كبيرا، له تأليف في الأصول والفروع، وهو أول من حاول أن يؤلف متبعا ثلاثة قواعد: هيَ الكتاب والسنة والرأي، ويجعل كل قاعدة بمعزل، فأدركه أجله قبل تأليفه[22].

– أبو عبيدة الأعرج: أحد علماء الإباضية، ذكره ابن الصغير بقوله: "كلهم مقرون له بالفضل، معترفون له بالعلم، مسلمون له في الورع، إذا اختلفوا في أمر من الفقه أو من الكلام صدورا عن رأيه، وقد رأيت هذا الرجل وجلست إليه فما رأيت في سود الرؤوس أخشع منه"[23].

– أبو حسان الفرطاسي: كان أحد أعلام نشر الثقافة الدينية بين عامة الناس، فقد كان يمشي بين المنازل يجمع العامة، ويقيم لهم مجالس يعلمهم فيها ما يحتاجون من أمور دينهم، واستمر هذا الأمر مدة شهرين في السنة، تم بعد ذلك يقيم مجالس أخرى لتعليم النساء أمور دينهم[24].

– الشيخ مهدي النفوسي: كان إماما في المناظرة والجدل استعان به الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم لمناظرة رأس المعتزلة (الواصيلة)[25]؛ فقصد تاهرت مع ثلاثة من أصحابه كل واحد اختص في فن من العلم أو المبارزة[26]، ويروى عن المهدي النفوسي أنه لما قدم تاهرت كان يغيب لعدة أيام قبل انعقاد المناظرة؛ فلما سأل عن مكان غيابه قال: "إني قد رددت إلى مذهب الحق سبعين عالما من أهل الخلاف[27].

ولما جاء موعد اللقاء والمناظرة، تقابل مهدي النفوسي مع مناظره الواصلي، الذي لا تذكر المصادر اسمه؛ فناظره وانتصر عليه[28]، إن هذا النوع من المناظرات دلالة على المستوى العلمي العالي لدى الإباضية، كانت تلك بعض الشواهد لعلماء كانوا بمثابة دعامة قوية لقاعدة ثقافية رصينة في الدولة الرستمية وبخاصة في تاهرت وجبل نفوسة.

2– بذل الأموال في سبيل جلب الكتب النادرة: حرص الأئمة بتاهرت على تزودهم بالعلم من خلال بذل الأموال في اقتناء الكتب وقراءتها كحال الإمام الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن، الذي كان من عادته إذا فرغ من الصلاة أن يأخذ كتابا فيقرأ فيه[29]، وأنه بعث ألف دينار إلى إخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتبا، فاقتضى نظرهم أن يشتروها ورقا وتطوعوا بالمداد وأجرة الناسخ والمفسرين حتى أكملوا ديوانا عظيما؛

فبعثوا به إليه فقرأه ثم قال: "الحمد لله إذ ليست بها مسألة عزبت عني إلا مسألتين، ولو سئلت عنها لأجبت قياسا على نظائرها ووافقت الصواب[30] مما يعكس اتساع معرفته وولعه الشديد بالكتب.

لا شكّ أن هذه الكتب التي بعثت للإمام عبد الوهاب كانت النواة الأولى لمكتبة تاهرت التي ورد ذكرها في مصادر الإباظية باسم "صومعة" كانت مملوءة كتبا[31]، والتي عرفت فيما بعد بالمعصومة، وكانت تضم نحوًا من ثلاثمائة ألف مجلد من مختلف أنواع العلوم والفنون، وقد خربت هذه المكتبة على أيدي الفاطميين بعدما أخذوا منها كتب الرياضيات والفلك والهندسة[32] كما وجدت مكتبة في جبل نفوسة اشتهرت بخزانة نفوسة، وكانت هي الأخرى تحوي الآلاف من مجلدات العلوم[33].

ومما لا شك فيه أن هذه المكتبات كانت مؤسسات تعليمية إضافية إلى المساجد التي كانت تتم فيها حلقات الدرس والمنازل، فالمكتبات هي إحدى الدعامات المساعدة على نشر الثقافة بما احتوته من كتب، وهي دليل واضح على مقدار تقدير المجتمع الاباضي للعلم في ذلك العصر.

3- الرحلات و أثرها الثقافي: عمل الرستميون على توثيق علاقاتهم الثقافية بمختلف البيئات العلمية والاحتكاك بمراكز الثقافة في العالم الإسلامي، فموقع تاهرت مكنها من أن تلعب دور الوسيط الثقافي بين حواضر ومراكز الإشعاع الحضاري في المغرب الإسلامي، بالشكل الذي أثمر علاقات ثقافية مع الدول والإمارات المجاورة، فرغم الصراع السياسي بين الأغالبة والرستميين والاختلاف المذهبي بين القيروان وتاهرت- باعتبار الأولى ذات غالبية مالكية والثانية ذات غالبية إباضية- لم يكن حائلا دون إقامة جسر من التواصل الفكري والثقافي بين الحاضرتين، فقد تواجد أهل القيروان بتاهرت بالمسجد الخاص بهم ورحبتهم، وساهموا في الحياة الفكرية للدولة، ودخلوا في مناظرات مع علماء الإباضية وغيرهم.

كما أقامت تاهرت علاقات ثقافية بالأمويين بالأندلس الى جانب العلاقات السياسية والاقتصادية، وكانت الرحلات المتبادلة بين علماء بلاد الأندلس وتاهرت من أهم الروابط التي ربطت بين القطرين ثقافيا، حيث تزودنا كتب التراجم بعدد غير قليل من العلماء اللذين رحلوا من بلاد الأندلس إلى تاهرت، وبالعكس لطلب العلم والتزود به، فعلى سبيل المثال من علماء تاهرت الراحلين إلى الأندلس عبد الرحمن بن حماد التاهرتي الذي حدّث بقرطبة عن أبيه، وكتب عنه غير واحد من شعر أبيه وحديثه[34]، وكانت وفاته بقرطبة سنة 295هـ/908م.

ووفد على تاهرت عدد غير قليل من الأندلسيين حيث يطلعنا مؤرخو الإباضية على شخصيتين أندلسيتين كانتا في تاهرت عند وفاة عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ هما مسعود الأندلسي وعمران بن مروان الأندلسي، وأنهما كانا من بين الشخصيات المترشحة(35) للإمامة بعد عبد الرحمن(36). إن عملية الترشيح هذه تدل على أنهما كانا من كبار أعلام المذهب الاباضي(37) فعن مسعود الأندلسي يقول الدرجيني: "أنه كان فاضلا فقيها ورعا من شيوخ المسلمين(38)، هذا الوضع الذي كانت عليه تاهرت من التنوع في السكان، وبالتالي تعدد الثقافات، كان له أثره في بناء حضارة ذات مشارب مختلفة في ظل المذهب الاباضي، ولعل الوصف الذي وصف به المقدسي تاهرت يدل على ما أدخله هؤلاء الوافدين على تاهرت من ثقافة شملت جميع مظاهر الحياة إذ وصفها بقوله: "هي بلخ المغرب.....انتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب، يفضلونها على دمشق واخطئوا، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا"(39).

أما الرحلة بين تاهرت والمشرق فكانت في الغالب من أتباع المذهب الإباضي الذين قدموا من البصرة والكوفة حتى غدت تاهرت تعرف "ببلخ المغرب" أو "عراق المغرب"، وكان القادمون إليها من الكثرة بحيث بنوا لهم مساجد خاصة بهم عرفت بأسمائهم، وهذا ما أورده ابن الصغير بقوله: "وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار، ليس لأحد يترل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته، وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين(40).

لقد اقترنت الرحلة في الغالب نحو المشرق بتحقيق هدفين: أولهما تأدية فريضة الحج باعتباره ركن من أركان الإسلام خصوصا بالنسبة للمغاربة البربر الذين حسن إسلامهم، وثانيهما علمي حيث كانت القوافل تخرج من تاهرت لأداء فريضة الحج، ولا شك أن تلك القوافل من الحجاج كانت لها اتصالات مع مشايخ المشرق وعلمائه،(41)؛ فلقد كان لمحمد ابن محبوب وابنه من علماء المشرق خيام تعرف بمضارب محبوب، وكان يقصدها المغاربة لأخذ العلم(42).

لم يكن الحج الوسيلة الوحيدة التي ينهل من خلالها الحجاج علوم ومعارف المشرق، بل كانت هناك رحلات للعلماء طلبا للعلم، نذكر منها رحلة بكر بن حماد(43) الشاعر التاهرتي والمحدث (200-296هـ/815-909م) الذي رحل إلى المشرق، ودخل البصرة وبغداد، وكانت له فيها اتصالات بعلماء

عصره[44]، وعبد العزيز بن الأوز الفقيه[45]، كما زار نفات بن نصر النفوسي بغداد، وكان عالما، وتذكر المصادر الاباضية أنه كان له تجاذب كلام مع الخليفة، واستطاع أن يحل لغزا له بمحضر الفقهاء الأكابر من أهل بغداد[46] مما يعكس علم وذكاء هذا الرجل.

وبالمقابل كان المشارقة يفدون إلى تاهرت، ومنهم أبو غانم بشير بن غانم الخراساني[47] الذي وفد على الإمام عبد الوهاب ومعه مدونته المشهورة في الفقه، فاجتاز على جبل نفوسة؛ فاستودع عمروس بن فتح المساكني النفوسي– قاضي جبل نفوسه– الكتاب المذكور، وتوجه إلى تاهرت بعد أن استأذنه عمروس في استنساخ مدونته[48]، مما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء الذين زاروا المشرق والوافدين منه كان لهم دور كبير في نقل مختلف العلوم، وإثراء الحركة العلمية بتاهرت.

إسهام المرأة الاباضية في الحركة الفكرية: إن الحركة الفكرية التي عرفتها الدول الرستمية والتي جعلت منها حاضرة إسلامية، ومركزا للإشعاع الثقافي الذي شاركت المرأة فيه، وساهمت بدور هام في ازدهاره، ذلك لأن المجتمع الاباضي حرص على نشر العلم ليس بين الرجال فقط بل وبين النساء أيضا على يد مؤدبين من المحارم أو عن طريق الاتصال بمن اشتهرت من النساء بعلمهن و ثقافتهن، أو في مجالس خاصة، إذ وجدت من النساء من هي عالمة ومستفسرة عن مسائل دينها، وكانت المرأة الاباضية بالخصوص باعتبار أن تلك الفترة كانت فترة سلطان المذهب الاباضي، كثيرة الاعتناء بالشعائر الدينية.

كانت المرأة الوعاء الحقيقي للإباضية حيث حملت هذا المذهب بأمانة، تدافع عنه وتربي الأجيال عليه[49]، ولذلك حظيت باهتمام خاص، ونالت نصيبها من العلم والثقافة، حيث كانت تتعلم أمور دينها وهذا أمر طبيعي، فقد حضّ الإسلام على تعليم المرأة، ودعا إلى حسن تربيتها وتثقيفها.

لقد خطا تعليم المرأة في المجتمع الرستمي خطوات جيدة حيث تعرضت كتب السير الاباضية إلى عدد غير قليل من النساء اللائي اشتهرن بالعلم وبرزن في الفقه، نذكر منهن الغاية زوجة أبي القاسم يزيد ابن مخلد فقيه الحامة[50] التي كانت من أهل الصلاح والاجتهاد، وكانت تحسن إعانته على ما هو في سبيله، وكانت تحضر دروسه مع تلاميذه من وراء الستار، وقد بلغ من اجتهاد هذه المرأة أنها أصغت يوما إلى مذكرة الطلبة فورد ذكر القراءة في الصلاة فسمعت بينهم القول بأن من قام إلى الصلاة فقرأ في نفسه ولم تتحرك بالقراءة شفتاه ولا نطق بها عليه الإعادة، فلما تحققت من ذلك وجاء الليل أقبلت فأعادت احتياطا صلاة سنة..."[51].

وأما أخت عمروس بن فتح المساكني النفوسي، قاضي جبل نفوسة في أواخر الدولة الرستمية، كانت عالمة فقيهة[52] مرافقة لأخيها في دراسته، تستمع إليه وتأخذ عنه، كما كانت المساعد الأساسي له لاستنساخ مدونة أبي الغانم الخراساني، إذ تذكر المصادر الإباضية[53] أنها كانت تملي عليه، وكان إذا جلس للنسخ في موضوع لازمته حتى تدركه الشمس، فينتقل إلى الظل والأصل في يدي أخته، وعينه في الكتاب لا يتحول حرصا في إحياء العلم، حتى أتيا على نسخ الكتاب كله، وكان في اثني عشر جزءا"، وتؤكد ذات المصادر على أنه لولا حرص عمروس وأخته على نسخ هذه المدونة لما بقي لأهل المذهب بجهات المغرب ديوانا يعتمدون عليه لما وقع بتاهرت وأحرقت كتبها"[54].

ومن النساء الإباضيات اللائي نبغن في العلوم، وبرعن في علم الحساب والتنجيم أخت الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذي يذكر أبو زكرياء أنه بلغ في علم الغبار[55] والنجامة مبلغا عظيما[56]، ويذكر أن الإمام أفلح "قعد ليلة مع أخته فتذاكرا ما أول ما يذبح غدا في السوق إن شاء الله؛ فقال أفلح بقرة صفراء في بطنها عجل أغر، وقالت الأخت ذلك البياض في طرف ذنبه، وكان الأمر كما قالا..."[57].

نستنتج من هذه الرواية أن هذا العلم الذي يربط بين الحساب والتنجيم والفلك في آن واحد علم توارثته الأسرة الرستمية ابتداءا من رستم أبي عبد الرحمن الذي كان يروي أن ذريته ستلي أرض المغرب[58]، إلى آخر إمام وهو يعقوب بن أفلح الذي نظر وهو في طريقه إلى ورجلان نظرة في النجوم، وقال لأصحابه افترقوا فقد انقطعت أيامكم وزال ملككم[59].

هذا يعني أن أئمة الرستميين لم يكونوا متفقهين في أصول المذهب فقط، بل كانوا على دراية تامة بالعلوم الأخرى النافعة لأمور الحكم والدين كالحساب والنجوم.

لقد بلغت النساء درجة من العلم بحيث أصبحت أقوالهن من المأثورات المقررة عند أهل المذهب، وفي ذلك يروي الدرجيني إن ابنة الشيخ أبي مسور يصليتن النفوسي– معاصر الإمام عبد الوهاب– أخذت العلم عن أبيها، وكانت قوية الحجة، وكانت تجادل والدها في العلم، "فقد جلست معه ذات يوم حتى قال: المسلمون أفضل من أقوالهم، فقالت هي: أقوالهم أفضل لأن المسلمين يفنون وتبقى أقوالهم ينتفع بها بعدهم، إلا إن كنت تريد فضل الأجسام على الأعراض، وإلا أفعالهم والدين أفضل المخلوقات"[60].

ومن مواقف هذه المرأة أيضا مع أبيها، والتي تكشف عن ذكاء نافذ وفهم عميق لمقاصد الشرع مع فصاحة اللسان، وأن حياءها لم يمنعها من التفقه في دينها، "أنها جاءت إلى أبيها تسأله عن مسائل الحيض، ووصفت له بعض ما أصابها، فقال لها: ألا تستحي مني يا ابنتي؟ فقالت: أخشى إن استحيت في أمور ديني أن يمقتني الله تعالى يوم القيامة؛ فقال لها: لا يمقتك الله يا ابنتي[61] أي أنها ألزمت أباها الحجة فلم يجد لها ردا، وأجابها عن أسئلتها.

وقد روي أيضا عن هذه المرأة التي كانت عظيمة القدر في زمانها، أنها تدللت على أبيها يوما فقال لها: "أزوجك لمن له عليك سبعون حقا؛ فقالت: أردها إلى ثلاث: إن دعا أجبت، وإن أمر امتثلت، وإن نهى تركت"[62] مما يدل على ذكاء هذه المرأة الحاد وفهمها الدقيق للفقه الإسلامي.

ومن مواقف هذه المرأة أيضا أنها جلست ذات يوم إلى أبيها، وقد فرغت من غسل ثيابها ونشرها، ونظر الأب إلى صفاء الثياب فقال: "تمنيت أن الله يطهر قلبي مثل هذه الثياب، فقالت: "تمنيت أن يكون بيدي تطهير قلبي فأطهره كهذه الثياب، وأرسله إلى مولاه، فقال لها: إنك لأبلغ مني حتى في الأماني"[63].

وإذا أخذنا برواية الشماخي فإن المرأة كانت تفتح بيتها للعلماء يعقلون فيه مجالسهم العلمية كحال "بهلولة" التي فتحت منزلها للعالم أبي ذر أبان بن وسيم الويغوي الذي كان عاملا على نفوسة، وكانت "بهلولة" امرأة صالحة فقيهة فتزوجها، "وسألها يوما عن النساء اللائي يغشين بيته للتعليم والإفادة؛ فقالت فلانة على الزيادة في الخير؛ فقال زيدي الزيت والفتيلة"[64].

إن فتح البيت للعالم يلقي فيه دروسه ينم عن المستوى الرفيع الذي بلغه الاهتمام بالعلم في الدولة الرستمية، حتى أن المنازل استعملت في نشر الثقافة والعلوم الدينية السائدة إلى جانب المساجد والكتاتيب.

ومن النساء اللائي اشتهرن بالعلم والحكمة والدين والصلاح عجوز نفوسية التي شاركت الرجل الرأي والمشورة، حيث تذكر الروايات أن الإمام عبد الوهاب رغب في تولية أبا عبيد عبد الحميد الجناوي أمور الجبل فاعتذر، ولما رأى تشبث الإمام برأيه وإلحاحه على توليته، سار إلى تلك العجوز؛ فاستشارها في تحمل ما تقلد أو الفرار، فقالت له: هل تعلم في بلادك من أهل زمانك أقوم منك بما كلفت به وأحق بتقليد ما تقلدت؟ قال: أما في أمور الرجال فلا، قالت: فادخل إذا فيما قلدك الإمام، وإلا فإني أخشى تهشم عظامك في نار جهنم، فقد قامت عليك الحجة[65]؛ فأخذ برأيها وتقلد أمور المسلمين بجبل نفوسة حيث كان أهله يذكرون فضل تلك العجوز ويعترفون بها.

ومما يلاحظ في هذه القصة أن العجوز التي لا تذكر المصادر اسمها كانت واعية وعارفة بمجرى الأحداث، وكان سعيها توجيه الأمة إلى الوجهة الصالحة.

لقد ساهمت المرأة الإباضية أيضا في تعليم بنات جنسها، نذكر هنا امرأة تدعى أم يحي، زوج العالم أبي ميمون الجيطالي من نفوسة الجبل، وهي من غير بلده، وتذكر المصادر الإباضية عن هذه المرأة أنه لما نزل الشيخ أبو ميمون من الجبل مع تلامذته "رأته أقصرهم قامة، فلما حلقوا عليه، وأقبل كل واحد منهم يسأل والشيخ يجيب، رأت حينئذ أن الشيخ أطولهم وأعظمهم" [66] مما ينم عن تقدير هذه المرأة للعلم.

كانت أم يحي تستقبل النساء في منزلها تعلمهن أمور دينهن، وبذلت نفسها ومالها من أجلهن[67]، وعندما توفي زوجها بقيت بعده تستقبل العلماء الذين يجتمعون عندها يوم الجمعة يتذاكرون ويحيون ليلتهم في العبادة[68]، هذا وكان لهذه المرأة ذاكرة حافظة، ومن ذلك ما يروى عنها "أنها سمعت رجلا في طريق الحج ينشد قصيدة من ثمانين بيتا فحفظتها كلها[69]"، وعلى الرغم مما في هذه القصة من المبالغة إلا أنها لا تخلو من حقيقة أن أم يحي ومثيلاتها في جبل نفوسة أو تاهرت كن شغوفات بتحصيل العلم.

خاتمة: عمل أئمة الدولة الرستمية منذ إنشائها على نشر العلم بين جميع طبقات الشعب لأنهم كانوا يهدفون إلى ترسيخ مبادئ الإباضية في أذهان الناس، ولم تستثنى المرأة من ذلك، حيث كان لها دورها في الحركة الفكرية التي عرفتها تاهرت، والتي جعلت منها مركز إشعاع حضاري، وقد أتينا بنماذج لإبراز مكانة المرأة الفكرية في المجتمع الاباضي كعاملة وفقيهة وناصحة من الأسرة الرستمية وغيرها بحكم أن إمامة تاهرت كانت تمد نفوذها إلى طرابلس وجبل نفوسة، وهناك شواهد كثيرة على نبوغ المرأة في مختلف العلوم.

الهوامش:

1- هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام مولى لعثمان بن عثمان، و هو أول من ملك تاهرت و كانت مدته بها سبعة أعوام، ولي بتاهرت سنة 160ه و قال بعضهم سنة 162ه-ابي زكرياء يحي بن ابي بكر-كتاب سير الائمة وأخبارهم- تحقيق و تعليق إسماعيل العربي- المكتبة الوطنية الجزائر 1979- ص35، ابن عذاري المراكشي- البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق- ج كولان وليفي بروفنسال- دار الثقافة، بيروت لبنان ط2-1980 ج1-ص196-197.

2- كان الدين انتخبوا عبد الرحمن- هم شيوخ الاباضية و رؤساء القبائل و يقول الشماخي، أن الناخبين رعوا أربعة أسس، الفضل، العلم، الوصية، إلا يكون الإمام من قبيلة كبيرة- الشماخي أبو العباس احمد ابن سعد- كتاب السير- تحقيق احمد بن سعود السيالي- المكتبة الوطنية الجزائرية- ط2، 1412/1992م-ج1 ص125.

3- وهم خمسة وفدوا إلى الإمام أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة بالبصرة، واحد منهم من اليمن و هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح و الباقون مغاربة و هم : عبد الرحمن بن رستم، عاصم السدراتي، أبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي و ابو داود القبلي،

الشماخي المصدر نفسه، ص124-129، الدرجيني ابو العباس احمد ابن سعيد- كتاب طبقات المشايخ بالمغرب- تحقيق ابراهيم طلاي- مطبعة البعث قسنطينة1394هـ-1974، ج1،ص19.

4- الشماخي- المصدر السابق- ص 125.

5- ابن الصغير- أخبار الأئمة الرستميين- تحقيق و تعليق محمد الناصر، و بحاز ابراهيم- دار الغرب الاسلامي- بيروت لبنان 1986، ص117

6- عبد العزيز سالم- المغرب الكبير- العصر الاسلامي- دار النهضة العربية- بيروت 1981-، ص574.

7- الدرجيني- طبقات- ج1-ص66-67

8- المصدر نفسه-ص77

9- بوزياني الدراجي- دول الخوارج العلويين في بلاد المغرب و الأندلس- دار الكتاب العربي- الجزائر 2007، ص111، عبد الله شريط و محمد الميلي- الجزائر في مرآة التاريخ- مكتبة البعث قسنطينة- ط1965- ص63.

10- ابن الصغير- المصدر السابق- ص 71.

11- بحاز ابراهيم – الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية و الحياة الفكرية- طبعة منقحة- 1993- ص271.

12- الدرجيني- مصدر سابق- ج1- ص83.

13- ابن الصغير- المصدر السابق- ص92.

14- ابن الصغير-ص 93، الدرجيني- المصدر السابق- ج1- ص 84

15- المصدر السابق- ص 56

16- أبو زكرياء- سير الأئمة و أخبارهم- ص65

17- الشماخي- المصدر السابق ج1- ص167

18- ابن الصغير- المصدر السابق- ص45.

19- المصدر نفسه- ص45-46

20- حسين مؤنس- تاريخ المغرب و حضارته- م1-ج1- العصر الحديث للنشر و التوزيع- ط1- 1992- ص332.

21- الشماخي- المصدر السابق- ج1 – ص167

22- الشماخي نفسه- ص84

23- ابن الصغير- المصدر السابق- ص 95

24- التليسي (بشير رمضان) الاتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي- خلال القرن الرابع الهجري، العاشر ميلادي- دار المدار الإسلامي- ط1- 2003- ص 93.

25- ينتسبون إلى واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة يقدر عددهم في الدولة الرستمية بثلاثين ألف، و كانوا يعيشون قريبا من تاهرت و ,أكثرهم من البادية، كان زعماء الواصليه يحسنون الجدل في المسائل التي كانت موضوع خلاف بين أهل المذهب، مما جعل الكتاب ينسبونهم كذلك إلى المعتزلة بعد أن كان اعتزالهم سياسيا بمعنى الانحياز عن مجتمع تاهرت و الابتعاد عنه، سعد زغلول- تاريخ المغرب العربي ج2- الناشر المعارف بالإسكندرية 1979- ص325- 326.

26- أحدهم مهدي الويغوي و الثاني أيوب بن عباس و الثالث ابن يانيس، و الرابع اسمه محمد أبو محمد و قيل أبو الحسن الابدلاني، و قد تساءلوا فيما بينهم فقال لهم مهدي إما أنا فأكفيكم المناظرة، وقال محمد بن يانيس و أنا تفسير القرآن و اعتمدوا على أيوب في المبارزة، ابو زكرياء- سير- ص 67، الدرجيني- طبقات ج1،ص58 الشماخي- سير ج1- ص 137.

27- الدرجيني- نفسه- ص60

28- المصدر نفسه، ص60.
29- أبو زكرياء- المصدر السابق- ص 61.
30- المصدر نفسه-ص65، الدرجيني- ج1- ص56-57
31- أبو زكرياء- سير- ص113، الدرجيني- طبقات ج1،ص94.
32- عبد العزيز سالم- مرجع سابق- ص576، عيسى الحريري- الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم للنشر و التوزيع - ط3،ص237.
33- المرجع نفسه،ص 237
34- ابن الفرضي- تاريخ علماء الأندلس- تحقيق صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية- بيروت-صيدا- ط1- ج1، ص245.
35- هم مسعود الأندلسي و أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني و عمران بن مروان الأندلسي و عبد الوهاب بن عبد الرحمن و أبو الموقف سعدوس بن عطابة و شكر بن صالح الكتامي و مصعب بن سرمان- الدرجيني- طبقات- ج1- ص46.
36- المصدر نفسه- ص46
37- جودت عبد الكريم- العلاقات الخارجية للدولة الرستمية- المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر- 1984- ص 129.
38- الدرجيني- المصدر السابق- ص46
39- المقديسي شمس الدين أبو عبد الله- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم- تعليق محمد أمين الضناوي- منشورات محمد علي بيضون- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1. 2003ص185.
40- ابن الصغير- مصدر سابق- ص35.
41- بحاز إبراهيم- مرجع سابق- ص 392.
42- نفسه- ص392.
43- هو أبو عبيد الرحمن بكر بن حماد بن سهل بن أبي إسماعيل الزناتي التهارتي، ولد بتاهرت حوالي 200ه نشأ بها شغوفا بحب العلم و المعرفة و رحل إلى المشرق عام 217ه فسمع من الفقهاء و حلة العلماء و كان عالما بالحديث، ابن عذاري- مصدر سابق- ج1- ص153-154.
44- المصدر ذاته ص154.
45- بحاز- المرجع السابق- ص 394.
46- الدرجيني- مصدر سابق- ج1- ص80-81.
47- هو الإمام العالم أبي غانم بشير بن غانم الخرساني من علماء القرنين الثاني و الثالث الهجريين، خرج من المشرق متوجها إلى المغرب و معه مدونته المشهورة في الفقه، و هي تقع في اثني عشر جزءا- المصدر نفسه- ج2- ص323، الشماخي- مصدر سابق- ج1- ص194.
48- المصدر نفسه- ص194، الدرجيني- المصدر السابق- ج2- ص323.
49- بحاز- مرجع سابق- ص377.
50- أبو زكرياء- مصدر سابق- ص 104.
51- الشماخي- المصدر السابق- ج2- ص34، الدرجيني- المصدر السابق- ج1- ص 120.
52- أبو زكرياء- المصدر السابق- ص104.

53- الشماخي- مصدر سابق- ج1-ص194، الدرجيني -مصدر سابق- ج2- ص323.

54- الشماخي- نفسه- ص195، الدرجيني- نفسه- ص323.

55- علم الغبار، عبارة مشتقة من الأرقام الغبارية التي كان يستخدمها سكان الهند بحيث كانوا يأخذون غبارا لطيفا و يبسطونه على لوح من خشب أو غيره و يرسمون عليه الأرقام التي يحتاجون إليها في عملياتهم الحسابية و معاملاتهم التجارية، و الأرقام الغبارية المستعملة اليوم بالمغرب مثل(9، 2، 1) – بحاز- مرجع سابق- ص 89.

56- أبو زكرياء- المصدر السابق- ص89.

57- نفسه- ص89 ، الشماخي- السير ج1- ص167.

58- أبو زكرياء- نفس المصدر- ص 35، مصدر سابق- ج1-ص 19.

59- الدرجيني- نفسه- ج1- ص105.

60- نفسه- ج2- ص316، الشماخي- المصدر السابق- ج1- ص 197.

61- الدرجيني- نفسه- ج2- ص316.

62- نفسه- ص316، الشماخي- المصدر السابق- ج1- ص197.

63- الدرجيني- نفسه.ص316، الشماخي- نفسه- ص197

64- الشماخي- نفسه- ج1- ص71

65- الدرجيني- المصدر السابق- ج1- ص71.

66- نفسه- ج2- ص195، الشماخي- المصدر السابق- ج1- ص198.

67- الشماخي- نفسه- ج1- ص199.

68- نفسه- ص-199.

69- نفسه- ص199.